

تأصيل القيم الروحية في المجتمع الإسلامي

الأستاذ حسن فتح الباب

ان التحول العظيم الذي قاده المسلمون الأوائل بقيادة سيدنا محمد رسول الله صلى الله عليه وسلم للفناء على الظلم والتفرقة واستنزاف دماء المستضعفين في الأرض ، ولبناء مجتمع متقدم متماسك يقوم على التوحيد والتقوى والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر ، لم يكن يتم بهذه السرعة الفريدة في تاريخ البشرية بغير ركيزة روحية صلبة لا تعادلها قوة الأسلحة المادية مهما تزايد عددها وتفوق نوعها .

لقد جاء الإسلام ليحرر الجماعات والأفراد من العبودية . فكانت التعاليم كلها ترمي إلى استعادة حرية الإنسان وحلته في العيش الآمن الشريف من طريق تبصير فكره ووجدانه - وهما أمن قوى النفس البشرية - بهذه المعاني وتأسيس تلك القيم الروحية والأخلاقية في أعماقه حتى يدفع عن حقه بنفسه ويجاهد في سبيل وطنه وعقيدته جهادا قد يصل به إلى حد الاستشهاد

ذلك ان الاستشهاد في سبيل قضية حق وشرف وعدالة أكرم من الاستسلام وما يعقبه من حياة ذليلة ، لان المعيار الحقيقي لتقييم الإنسان هو القوة الروحية التي تميزه عن غيره من الكائنات ، وعناصر هذه القوة هي الكرامة والقدرة على مواجهة التحديات والصمود في المحن والانطلاق إلى آفاق جديدة تزيد الإنسان عراقة في إنسانيته

وظلما ان الموت حق لا بد منه فان الحياة في عزة أكرم من العيش في هوان بل ان العيش الذليل هو العدم بعينه . ومن هنا أطلق المشرعون اصطلاح الموت المدني على حالة الفرد الذي يفقد حريات المواطن وحقوقه في المجتمع ، فالحياة بغير هذه الحريات والحقوق تفقد جوهرها وتصبح شبيهة بحياة الأنعام والسوائم .

وقيمة العمل المنبثق من الإيمان الذي يصل إلى حد التضحية هي أعلى القيم الروحية . والتضحية بالنفس لاتعني انتهاء الحياة وإنما تعني اتصالها . لان الفرد بعد موته يحيا فيما يخلفه من عمل صالح ، وبقاء الجماعة التي ينتمى إليها هي امتداد لحياته ، بل ان المعيار الحسابي يصدق كذلك في حساب الموت من أجل المبادئ والمثل العليا . فقد أتت الاحصاءات والحقائق العلمية أن الذين يموتون في الثورة ولقد كان الإسلام ثورة متصلة الحلقات ضد القهر بكافة صورته - أقل بكثير جدا من الذين يموتون موتا بطيئا بسبب الاستغلال والاستعباد .

وانطلاقا من هذه المفاهيم بذل الرواد الأوائل في تاريخ الإسلام أقصى جهودهم في سبيل تثبيت القيم الروحية والخلفية وتأسيسها في نفوس المسلمين . فقيمة الإيمان وقيمة الحرية ، وقيمة العدل ، وقيمة العمل ، وقيمة التضحية وغيرها من القيم الرفيعة كل أولئك تقوم على انتزاع الأثرة والأنانية من نفس المسلم وانتزاع الخسوف من المسوت والحرص على مناعم الحياة ، بغض النظر عما يؤدي إليه ذلك من مذلة ومن جور واستغلال .

تلك هي المعجزة الحقيقية التي أتى بها سيدنا محمد رسول الله صلى الله عليه وسلم ، ان يستأصل القيم المرذولة من نفوس بني قومه ويستبدل بها قيما رشيدة صالحة. ولولا ذلك لما استطاع هو وأتباعه ومعظمهم من الفئات الفقيرة والمضطهدة أن يغيروا مجتمع قريش الوفير عددا بشريا وموارد مادية وأن يحاصروه من كل جانب ويفتحوا عليه معاقلة حتى يقنع ويلقى سلاحه .

ان الإيمان الصادق هو الذي يحرك الطاقات البشرية الكامنة فيحولها إلى

قوة لا تصارعها قوة أخرى ، وهو الذي يربط أفراد الجماعة برباط وثيق ويذيب الفردية في نفوسهم ويطلق قوى التضامن والأيثار ، ليصبحوا جميعا كأنهم رجل واحد فيندفع كل منهم مستعدا لتقديم أية تضحية في سبيل تحقيق الهدف المشترك ، ولقد نمت هذه التعبئة الثورية في نفوس الصحابة بفضل ما بث الرسول في نفوسهم من معاني المساواة والإخاء والعدالة وتحمل المسؤولية . فلا امتيازات ، ولا مصالح طبقية ، ولا استغلال فرد لآخر أو جماعة لآخرى ، وإنما الثروة حق للجميع والعمل واجب على الجميع . وليس مثل توفير العدالة والإخلاص في العمل والاستهانة بالصعب دافع إلى وحدة الجماعة والتفافها حول قائدها في حماسة وحيوية ومقدرة من شأنها أن تجعل الجهود المبذولة أصعافا مضاعفا ، وأن تجعل الرجل الواحد يعمل عشرة رجال بفضل سلاح الإيمان الذي يغسل أمضى الأسلحة وهذا هو تفسير علمي لقول الله تعالى « كم من فئة قليلة غلبت فئة كثيرة باذن الله »

وقوله تعالى : يا أيها النبي حرض المؤمنين على القتال ان يكن منكم عشرون صابرون يقبلوا مائتين . وان يكن منكم مائة يقبلوا ألفا من الذين كفروا بأنهم قوم لا يفقهون الآن خفف الله عنكم وعلم أن فيكم ضعفا . فان يكن منكم مائة صابرة يقبلوا مائتين . وان يكن منكم ألف يقبلوا ألفين باذن الله والله مع الصابرين «

وما أخرى بنا أن نتأمل تلك المعاني وأن نفرس في نفوس أبناء امتنا تلك القيم الروحية الأصيلة في الإسلام فهي سلاحنا الأساسي في معركة الصمود والتصر .